

القَصَصُ الدِّينِي
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا

الحاكم برهشعل

عبد الحميد جودة السحار

١١

كان الحكمُ في أوَّلِ عهدِه ماجنا ، يَجْهَرُ بالمعاصي ،
وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ، وَيَقْتُلُ الْعُلَمَاءَ . وكان مجونُه يبلغُ
أحيانا درجةَ الجنون ؛ فكان يُمسك أولادَ الناسِ
ويخصيهم ، وهو يُقهقه غبطةً وانسراحا .

ووجدَ عمَّاه سليمانُ وعبدُ الرحمنِ الفرصةَ سانحةً ،
لتأليبِ الشعبِ عليه . فثاروا عليه ، وأيدَّ ثورتَهُما أن
أهلَ الربضِ من قُرطبةَ ، ثاروا به وخلعوه ، وبايعوا
عمَّه . فجمعَ الحكمُ جيوشَه ، وخرجَ لِقِتالِ الشائرينِ
بنفسه ؛ فانتصرَ عليهم ، وهدمَ دُورَهم ومساجدَهم ؛
ففرَّ بعضُهم ، ولحقوا بناسٍ من إفريقيةَ ، وكان على
أَيْدِي هَؤُلَاءِ المجهدين فتَحُ

جزيرة كريت (أقریطش) .

وفرَّ عَمُ الْحَكَمِ إِلَى شَارْلَمَان ، ودخلَ عَلَيْهِ فِي مَدِينَةِ
إِكْسَلَا شَابِل ، وَطَلَبَ مِنْهُ النَّجْدَةَ . وَفِي نَفْسِ
الْوَقْتِ ، حِينَمَا كَانَ لُويسُ بْنُ شَارْلَمَان ، مَلِكُ
أَكْتِيَانَا ، عَاقِدًا مَجْمَعًا فِي طُلُوزَةِ ، جَاءَهُ رَسُولٌ مِنْ
الْأَذْفُونُش مَلِكِ جَلِيقِيَّةَ وَأَشْتُورِيَّةَ ، يَلْتَمِسُ حَشْدَ
جَمِيعِ الْقُوَّاتِ الْمَسِيحِيَّةِ ، لِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ .

وَلَا حَاجَ أَنْ الْفُرْصَةَ سَانِحَةً لِلشَّارِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ،
وَدُخُولِ أَسْبَانِيَا . فَرَا حَ لُويسُ مَلِكُ أَكْتِيَانَا وَأَخُوهُ
كَارْل ، يَشُنَّانِ الْغَارَةَ عَلَى أَطْرَافِ الْمُقَاطَعَاتِ الَّتِي
تَشْرَبُ مِنْ نَهْرِ إِبْرُهُ ، وَانْطَلَقَ لُويسُ حَتَّى اجْتَاَزَ
الْبِيرَانِيَّةَ مِنْ جِهَةِ أَرْعُون ؛ وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَضَعَ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، عَمُ الْحَكَمِ ، يَدَهُ عَلَى طُلَيْطَلَةَ ،

واستقرَّ عُمُه سُلَيْمَانُ فِي بَلَنْسِيَّةَ .

خَرَجَ الْحَكَمُ بِنَفْسِهِ إِلَى الْبِيرَانِيَّةِ ، وَبَعَثَ جَيْشًا
آخَرَ لِقِتَالِ عُمِه ، فَاسْتَوْلَى عَلَى بَرُشْلُونَةَ ، وَغَيْرَهَا
مِنَ الْمَدَنِ الَّتِي أَعْلَنَتِ الْعِصْيَانَ . ثُمَّ قَصَدَ إِلَى
الْجِبَالِ ، وَأَوْقَعَ بِالْمَسِيحِيِّينَ ، وَسَبَى مِنْهُمْ خَلْقًا
كَثِيرًا ، وَاتَّخَذَ مِنْ أَسْرَاهُ حَرَسًا خَاصًّا ؛ فَكَانَ أَوَّلُ
أُمَرَاءِ قُرْطُبَةَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا حَرَسًا خَاصًّا مِنْ
الْأَجَانِبِ .

٢

كَانَ الْحَكَمُ أَوَّلَ مَنْ جَعَلَ لِلْمُلْكِ بِأَرْضِ الْأَنْدَلُسِ
أُبُهَّةً ، وَاسْتَعَدَّ بِالْمَمَالِكِ ، حَتَّى بَلَّغُوا خَمْسَةَ آلَافٍ ،
مِنْهُمْ ثَلَاثَةُ آلَافٍ فَارِسَ ، وَأَلْفًا رَاجِلَ . وَكَانَ أَوَّلُ
مَنْ جَنَّدَ الْأَجْنَادَ ، وَاتَّخَذَ الْعُدَّةَ . وَكَانَ أَفْحَلَ بَنَى

أُمِّيَّةً بِالْأَنْدَلُسِ ، وَأَشَدَّهُمْ إِقْدَامًا وَنَحْوَةً ، حَتَّى إِنَّهُ
كَانَ يُشَبَّهُ بِأَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ ، فِي شِدَّةِ الْمُلْكِ ،
وَتَوْطِيدِ الدَّوْلَةِ .

رَأَى أَنْ يَقْضَى عَلَى مُنَاوِيهِ ، فَرَاخَ يُقَاتِلُ عَمَّهُ
سُلَيْمَانَ ؛ وَلَمْ يَهْدَأْ حَتَّى قُتِلَ عَمُّهُ فِي إِحْدَى
الْمَعَارِكِ . وَتَفَرَّغَ لَعَمَّهُ الْآخَرُ ، فَمَا زَالَ يُقَاتِلُهُ حَتَّى
فَرَّ عَمُّهُ إِلَى إِفْرِيقِيَّةَ ، وَعَادَتْ طَلِيطَلَةُ إِلَى الطَّاعَةِ .

وَكَانَتْ بَرُشْلُونَةُ لِقَرِبِهَا مِنْ فَرَنْسَا ، مِنْ أَشَدِّ
الْبِلَادِ نِكَايَةً بِالْفَرَنْسِيِّينَ ؛ فَكَانَ يُخْرَجُ مِنْهَا فُرْسَانُ
الْمُسْلِمِينَ ، عَلَى خِيُولِهِمُ السَّرِيعَةِ ؛ يَنْقَضُّونَ عَلَى
الْمُدُنِ الْفَرَنْسِيَّةِ ثُمَّ يَعُودُونَ بِالْغَنَائِمِ وَالْأَسْلَابِ
وَالْأَسْرَى . فَاتَّفَقَ لُوِيْسُ مَلِكُ أَكْتِيَانَا ، وَغُلِيَوْمُ
كُونْتِ طُلُوزَةِ ، عَلَى الْاِسْتِيلَاءِ عَلَى بَرُشْلُونَةِ ؛ وَكَانَ

شارلمان في رومة مشغولا بتتويجه إمبراطوراً على الغرب .

كانت برشلونة حصناً منيعاً للعرب ، فحاصرها الفرنسيون سنتين ، وضيقوا عليها الحصار ، ولكنها صمدت في وجه المهاجمين ، وعزز عليهم أخذها .

وقسم الإفرنج أنفسهم ثلاثة أقسام : قسم منهم راح يهاجم برشلونة ، وقسم ثان يقوده غليوم كونت طلوزة ، كان يربط في الممر الذي تتدفق منه جيوش الحكم ، الوافدة من قرطبة لنجدة المدينة المحاصرة ؛ وقسم ثالث يقوده الملك لويس نفسه ، وكان في أعالي جبال البيرانية ، يحمل على المسلمين كلما سنحت له الفرصة .

وتقاسم الإفرنج أعمال الحصار : فراح بعضهم

يضعون السّلام على الحصون ، وأخذ آخرون
يجلبون الميرة والماء ، وجعل آخرون يحفرون وينقبون
الجدران ، فاشتدّ الحصار وأحكم ، وجاءت جيوش
المسلمين فعجزت عن الاتّصال ياخوانهم المحصورين
في برّشلونة ، فتحولت إلى بلادِ أَشْتُورِيّة ، وهزمت
أهلها ، واستولت عليها .

ووقف أميرُ برّشلونة وحده ، في وجهِ القوّى
المتألّبة عليه ، المتجمّعة على قتاله . وخرج في إحدى
المعارك لقتال هؤلاء الذين أخذوا يُضيّقون الخناقَ
عليه ، فسقط أسيرا ، وحملوا على المدينة حملةً صادقة
، فسقطت برّشلونة ، والحكم مشغولٌ عن نجاتها ،
فإخمادِ الفتن التي كانت تائرةً ضده ، داخل بلادِهِ .

استولى الإفرنجُ على برّشلونة ، بعد أن بقيت
تسعين سنةً في أيدي المسلمين . فلمّا دخلوها حولوا

جوامعها كنائس ، وبعث الملك لويس إلى أبيه
شارلمان من الغنائم دروعاً وخيولاً عربية . وبسقوط
برشلونة ، أصبح لفرنسا منطقتان في شمالي أسبانيا :
كتالونيا وقاعدتها برشلونة ، وغشقونية ومن جملتها
نابارة وأراغون .

٣

كانت المنافسة على أشدها بين خلفاء بغداد وأمراء
قرطبة ؛ كانت منافسة تتسم بالأنانية ، والمصلحة
الخاصة ؛ فكانت مصالح الإسلام والمسلمين تضيع
في سبيل مجد شخصي زائل ، أو من أجل نكاية أمير
لأمير .

ففي السنة التي سقطت فيها برشلونة ، معقل
المسلمين الحصين ، أوفد هارون الرشيد ، خليفة
المسلمين ، وفداً إلى شارلمان .

كان شارلمان قد بعث إلى هارون الرشيد رسولا
يهوديا ، ومعه اثنان من الفرنسيين ، للسلام على
الخليفة العباسي . وأمر شارلمان ذلك الوفد بأن يمر
بالقدس قبل ذهابه إلى بغداد ، وأن يتعهد أحوال
حجاج بيت المقدس ، وأن يلتمس من الخليفة تسير
زيارة الحجاج لبيت المقدس . وكان الفرنسيون منذ
عهد أنيبال لم يروا في بلادهم فيلا ، فكان على
الوفد أن يجلبوا معهم فيلا ، ليراة أهل فرنسا .

ووصل الوفد إلى بغداد ، فاستقبله الخليفة استقبالا
رائعا ، وأنفذ له كل طلبه ، حتى الفيل أرسله مع
وفد من عنده ، يحمل الطيب والهدايا ، ويدخل
إكسلا شابل ، مقر الإمبراطور ؛ حاملا مودة
الخليفة ، التي يضعها فوق مودة جميع الملوك ، وكان

ذلك في نفس السَّنة التي سقطت فيها بَرُشِلونة .

٤

كانت طُلَيْطَلَةُ في ثورةٍ دائمة ، فما كان يهدأ لها حال ، وكان أغلبُ سكَّانِها من الأسبان ، فراح الحكمُ يفكر في أمرِها ، فرأى أن يأخذهم بالحيلة ، حتى يقضى على ثورتهم ؛ فكتب إليهم : « إِنَّ أعظمَ دليلٍ على اهتمامنا بأمرِكم ، أننا باعثون إليكم والياً من أبناء جنسِكُم » .

وبعث إليهم عُمرُوس ، وكان مولداً ، أبوه مُسلم وأُمُّه من الأسبان . وكان الحكم قد اتَّفَقَ معه على أمر ، فانطلق عُمرُوسُ إلى طُلَيْطَلَةَ ، وأظهرَ للشَّائرين أنَّه ثائرٌ مثلهم ، وأنَّه يرقبُ أوَّلَ فرصةٍ ليخلعَ طاعةَ الأميرِ الحكم ، ويَسْتَقِلَّ بالبلاد . وصار يُردِّد ذلك

القول ويهمسُ به ، ويؤسوسُ لهم بالنيّات ، حتى
وتثقوا به ، وأسلموا له قيادهم .

واتفق معهم على بناء قلعة في أعلى البلدة ،
تكون المعقل الأمين لهم ، إذا ما دهمتهم جيوشُ
السُّلطان . وبُني الحصن ، ونزل به عُمروس ، ثم
راح ينفذ ما اتفق عليه مع الأمير .

وبعث إلى الأمير أن يُرسل جيشًا إلى طليطلة ،
بحُجّة أن العدو تحرّك بالشُّغور ، فأرسل الحُكم جيشًا
بقيادة ولده عبد الرحمن ، وكان في الرابعة عشرة
من عمرة . فلما وصل الجيش إلى طليطلة ، أطلق
عمروس إشاعة تقول إن العدو قد انسحب ، وأن
جيش الأمير سيعود إلى قرطبة . ولما صدّق الناسُ
هذه الشائعة ، أشار عُمروس على أعيان طليطلة ،

بأن يقدموا للسلام على الأمير عبد الرحمن .
وأولم عمروسُ وليمة هائلة في الحصن ، فتقاطر
المدعوون ، وراحوا يهبطون عن ركائبهم ، ويدلفون
إلى الحصن في أبهة وجلال . وكان يستقبلهم في
ساحة الحصن جلادون قد شهبوا سيوفهم ، يقطعون
رقاب الوافدين ، ويلقون بها في الخندق .

ولحظ طبيب من أهل طليطلة عدم خروج
المدعوين ، فراح يسأل الناس :

- هل رأيتم أحدا من المدعوين في الحصن قد
خرج منه ؟

- لم نر أحدا ، فقد يكونون دخلوا من هذا
الباب ، وخرجوا من الباب الآخر .

فقال الطبيب : « بل لن يخرجوا أبدا » .

وسكنتِ الأمورُ في طليطلة ، ولم تقم فيها بعد
ذلك ثورة .

٥

لم يتمتع الحكم طويلاً بالراحة التي لاحت لعينه
أول ما تولّى الحكم ، ولم يستطع أن يستمر في عيشه
ومُجونه ، فقد ألقى نفسه مُحاطاً بأعداء يتربصون
به ؛ وفي قلب مملكته خونة ، سرعاناً ما يهرعون إلى
شارلمان يستعدونه عليه ؛ فخلع رداء المجون ،
وارتدى ثوب الجهاد ، وراح يُقاتل في السهول
والجبال ، يوطد ملك بني أمية .

وأغار على نابارة وبنبلونة ، ودخل وشقة ،
وانقضَّ على عامله الذي انضمَّ إلى شارلمان يسيرُ بين
يديه ، فقتله ، واحتزَّ رأسه ، وعاد إلى قرطبة مُظفراً

منصورا ، مرهوب الجانب .

وذهب العباسُ الشاعرُ إلى الشَّعر ، فلما نزل

بوادي الحِجارة ، سمع امرأةً تقول :

- واغوثاه بك يا حَكَم ، لقد أهملتنا حتى كَلَبَ

العدوُّ علينا ، فأَيَّمنا وأَيَّمنا .

فقال لها العباسُ : « ما بك ؟ » .

- كنتُ مقبلة من البادية في رُفْقَةٍ ، فخرجتُ

علينا خيلُ عدوِّ ، فقتلتُ وأسرت .

ودخل العباسُ على الحَكَم ، ووصف له خوف

الشَّعر ، واستصراخَ المرأةِ باسمه . فنادى في الحينِ

بالجهدِ والاستعدادِ ؛ فخرجَ بعد ثلاثٍ إلى وادي

الحجارة ، وسأل عن الخيلِ التي أغارت من أيِّ

أرض العدوِّ كانت ؟

فغزا الناحية التي خرجت منها الخيل ، وأثخنَ
فيها ، وفتح الحصون ، وخرَّب الديار ، وقتل عدداً
كثيراً . وجاء إلى وادي الحجارة ، فأمرَ بإحضارِ
المرأة ، وجميع من أُسر له أحدٌ في تلك البلاد ، وأمر
بضرب رقابِ الأسرى ، ثم قال للعباس :

- سلها هل أغاثها الحكم ؟

فقالت المرأة :

- والله لقد شفى الصدور ، وأنكى العدو ،
وأغاث الملهوف ، فأغاثه الله ، وأعز نصره .

فارتاح الحكمُ لقولها ، وبدا السُرورُ في وجهه ،

وقال :

ألم تر يا عباسُ أني أجبتها

على البعد أقتادُ الخميسَ المظفراً

فَأَدْرَكْتُ أَوْطَارًا وَبَرَدْتُ غُلَّةً

وَنَفْسْتُ مَكْرُوبًا وَأَغْنَيْتُ مُعْسِرًا

فَقَالَ الْعَبَّاسُ :

- نَعَمْ ، جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا عَنِ الْمُسْلِمِينَ !